الفصل الخامس

مكانة القدس فى القرآن الكريم

المعروف أَن جانبًا كبيرًا مِن الاستشراق قامت بِهِ فرَق مِن اليهود الَّتِي استمرت مُنْذُ نزول القرآن الكريم فِي الدس عَلَى القرآن، وعلى صلب العقيدة الإسلامية لِكَي تثبت للأجيال المختلفة أَن الدِّين الوحيد الإلهي هُوَ اليهودية وأن الأديان اللاحقة هِيَ مجرد ابتداع ومحاولات لتحويل السيادة المرتبطة بِالدِّين عَن اليهود إِلَى الشعوب الَّتِي نزلت فِيهَا الرسالتان: المسيحية والإسلامية. ولذلك لا نضيف جديدًا إِلَى هَذِهِ الإسرائيليات المعروفة فِي الدراسات الإسلامية والتى طالت القرآن والحديث. ولا نَظُن أن موضوع هَذِهِ المقالة يضيف جديدًا فِي هَذَا المسلسل الَّذِي بدأه اليهود مُنْذُ قرون ولن يكفوا عَنه مادامت راية الإسلام مرفوعة خفاقة، ولكن الجديد هُوَ أَن صاحب هَذِهِ الفرية وهو الدكتور نسيم دانا، الَّذِي نشرت لَهُ صحيفة يدعوت أحرونوت يوم ٢٠٠٢/٩/١٧ أهم نتائج دراسته باعتباره متخصصًا فِي أديان وثقافات الشرق الأوسط.

فالجديد لَيْسَ موضوع الدراسة وهو مكانة القدس فى القرآن الكريم، ولكن الجديد هَذِهِ المرة يتمثل فى عدد من الأمور:

الأمر الأول: هُوَ أن المؤلف جزء من المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، وركن من أركان المشروع الصهيونى مباشرةً، ويقوم بأبحاثه فى هَذَا المجال لأغراض معروفة سلفًا، ولذلك لا يُمْكن الاعتراف لَهُ بأيَّة صفة علمية، بَلْ ولا يجوز حَتَّى مناقشة خرافاته.

الأمر الثانى: أَنَّهُ يسهم بِهَذِهِ الدراسة فى تكريس الحملة الصهيونية عَلَى الإسلام والمسلمين ويواصل صب النار عَلَى الزيت بمناسبة الذكرى الأولى لأحداث ١١ سبتمبر الأمريكية.

الأمر الثالث: أن الدراسات الصهيونية كَانَت تركز عادة عَلَى الدراسات التلمودية، وتفسر كتابهم المقدس تفسيرًا يسند الادعاء بحقهم فى فلسطين. ولكن نسيم دانا فى هَذِهِ الدراسة، والذى ظَلَّ عَلَى سُنَّة أجداده، قَد انتقل هَذِهِ المرة إِلَى البحث عَن حَقّ أجداده فى فلسطين فى القرآن الكريم.

وَقد يقول قائل أن أساطير الصهيونية السياسية والدينية لا يُمْكِن حصرها، فَهَل نرد عَلَى كُلّ صغيرة وكبيرة يدَّعونها؟

الرأى عِنْدِى أن هَذِهِ الأساطير تصبح حقائق ويستند الآخرون عَلَيْهَا. حَيْثُ تنفرد دُونَ أى تَحدٍّ من الجانب الإسلامى بالساحة الثقافية والفكرية ويصبح ردنا بَعْد ذَلِك محاولة لزحزحة حقيقة استقرت على أسطورة. وللرد أهميتان: واحدة بِالنِّسْبَة لِمَن يريد أن يعرف الحقيقة، وأهمية أُخْرَى أكثر إلحاحًا بِالنِّسْبَة لدارس أديان

وثقافات الشرق الأوسط وفى مقدمتهم الدكتور نسيم دانا، لأن المسألة لَيْسَت وجهة نظر، ولكنها حقائق لا تقبل الاختلاف أو التأويل.

أما نتائج الدراسة الَّتِى أجراها نسيم دانا، والتى نشرتها الجريدة الإسرائيلية فهى:

١ ـ أن كلمة القدس لَمْ ترد فِى القرآن الكريم، كَمَا أن القرآن لَمْ يوضح أسباب قدسية القدس بِالنِّسْبَةِ للمسلمين، ولم يورد أن القدس كَانَت قبلتهم فِى الصلاة.

٢ ـ أن القرآن أَكَّدَ فِى أكثر مِن موضع عَلَى حَقّ إسرائيل فِى فلسطين.

٣ ـ أن حادثة الإسراء والمعراج كَمَا يُؤَكِّد بعض المفسرين إما أَنَّهَا لَمْ تحدث أصلاً أو أَنَّهَا عَلَى أكثر تقدير حدثت بروح الرسول وليس بجسده، ومن ثَمَّ فَإن فكرة البراق مِن اختراع المسلمين.

رغم الموقف العدائى فى القرآن الكريم لليهود فَإِنَّهُ لَمْ يشكك فِى حَقّ اليهود فِى أرض إسرائيل. ويعتبر نسيم دانا أَنَّهُ وقع عَلَى إكتشاف غَيْر مسبوق، وأن القرآن الكريم منصف، وليس كما كَانَ يتصور، ولكن المسلمين لا يقرءون، وأن أئمتهم هم الَّذِينَ يقدمون لَهُم خرافات لَيْسَت فِى القرآن الكريم.

أما الرد والإيضاح عَلَى مَا اكتشفه نسيم دانا فَهُوَ فِى القرآن الكريم نفسه وبصريح لفظه، كَمَا أغنانا عَن الرد رسالة الدكتوراه

الَّتِى قدمها شيخ الأزهر فضيلة د. محمد السيد طنطاوى، حول اليهود فى القرآن الكريم، ولذلك سنكتفى بإبداء الملاحظات الآتية:

الملاحظة الأولى: أن محاولة الاستناد إِلَى النصوص الدينية فى القرآن الكريم وفى غيره لمساندة مواقف سياسية أمر يجب أن يخرج من تحليلنا، لأن القرآن الكريم أرقى وأسمى من أن تتواضع مقولاته إِلَى مستوى النبوءات السياسية، وأن يصدق عَلَيْهِ مَا يصدق عَلَيْهَا من الصحة والكذب، وأن تُصْبِحُ مصداقيته قابلة للتذبذب فى مِثْل هَذِهِ الأحوال.

الملاحظة الثانية: أن نسيم دانا يقرأ القرآن ليبحث عَما يوافق هواه ولا ينظر إِلَيْهِ قطعًا باعتباره معجزة محمد ﷺ، الَّذِى لا يعترفون بِهِ ولا بالقرآن، ولذلك لا يجوز للكاتب اليهودى أن ينتزع دليلاً مبتسرًا من سياق يتلاعب بمحتوياته، فَلَيْسَ منطقيًا القول أن القرآن الكريم يتخذ موقفًا معاديًا لليهود لأن ذَلك يَعْنِى مَا لا يُمْكِن قبوله، وهو أن القرآن الكريم صنعة بشرية أَو أن يتآمر الله فِى كتابه عَلَى بعض خلقه وهم بنو إسرائيل.

الملاحظة الثالثة: هِىَ أن القرآن الكريم فِى سورة الإسراء حدثنا عَن الإسراء والمعراج الَّذِى شكك فِيهِ اليهود والكفار معًا بمجرد علمهم بِهِ ورد أبو بكر عليهم قبل أن يستمع إِلَى نبئه من صاحبه بقولته الشهيرة "أنصدقه فِى خبر الوحى ولا نصدقه فِى الإسراء والمعراج: إن كَانَ قَد قالها فَقَد صدق"، ولسنا هُنَا بصدد التأكيد عَلَى صحة خبر الإسراء والمعراج، فَهُوَ أمر مفروغ مِنْهُ فِى القرآن

الكريم والسُّنة، ولا عبرة باستمرار دانا وقومه عَلَى جهالتهم، وليعلم دانا والمتخصصون فى إسرائيل بأن الآيات الَّتى تبدأ بكلمة "سبحان" تأتى عادة بخبر مِمَّا يثير الشك وعدم التصديق لتعنى التنزيه لصاحب الرواية وهو الله سبحانه وتعالى، عن أن يقول مَا لَيْسَ بِحَقٍّ، وهذه قاعدة ثابتة يجب مراعاتها فى قراءة القرآن الكريم. فالإسراء قَد تَمَّ لعبد الله محمد ﷺ من المسجد الحرام فى مكة المكرمة إِلَى المسجد الأقصى، الَّذى لَمْ يَكُن إلاَّ مكانًا مقدسًا وبناء قائمًا.

فالعلاقة بَيْنَ مكة وبين بيت المقدس أى البيت الَّذى اكتسبت المنطقة قدسيتها من مكانته علاقة واضحة فى الآية الكريمة. أما الإسراء إِلَى المسجد الأقصى الَّذى وصف كَذَلِكَ لتصويره فى نظر أهل مكة؛ حَيْثُ هُوَ الأبعد بِالنِّسْبَةِ لَهُم، فَهُوَ إسراء إِلَى مكان وصفه الله فى الآية بِأَنَّهُ بارك حوله أى أن الرقعة الَّتى تحيط بالمسجد الأقصى مَهْمَا اتسع نطاقها الجغرافى فهى بقعة مباركة، ولا يُمْكِن لأحد أن يزعم فى تفسير هَذِهِ الآية بتحديد جغرافى ضيق يقتصر عَلَى مكان المسجد الأقصى، ورغم أن القدس كَانَت تَحْتَ سيطرة الرومان عِنْدَ نزول القرآن الكريم، وأنها لَمْ تُفتح إلاَّ فى عهد عمر. إلاَّ أن الله قَد جعلها فى القرآن الكريم أيضًا قبلة المسلمين فى الصلاة الَّتى تقررت خلال عروج الرسول ﷺ إِلَى السماء. والرحلتان متلازمتان، الإسراء من مكة إِلَى القدس والمعراج من القدس إِلَى السماء. ولو شاء الله تناهت قدرته، لجعل رحلة الرسول ﷺ إِلَى السماء مباشرة من مكة دُونَ حاجة إِلَى الإسراء، وقد أراد

الله أن يسبغ عَلَى المسجد الأقصى قدسية إضافية باستقدام الرسول إلَيه، وإستدعائه منْهُ إلَى رحلة السماء، ثُمَّ أضاف قدسية ثالثة عَلَى المسجد عِنْدَمَا تقررت الصلاة عَلَى المسلمين وأن يتقبل الله صلوات المسلمين فِى هَذَا المسجد المقدس الَّذِى تتجه إلَيْه قلوب المصلين وهم يستقبلون قبلته ويستحضرون الله عنده فِى صلواتهم.

فَلَيْسَ مما يؤخذ عَلَى القرآن أن خلا مِن إسم مدينة القدس، فَهُوَ طعن تافه يشبه الَّذِينَ طعنوا عَلَى القرآن - وما أكثر طعونهم! - بِأن القرآن يخلو مِن كلمة العقل فدلهم علماء المسلمين عَلَى سوءة جهلهم بِأن بالقرآن كل مشتقات العقل وكل وظائف العقل، مِثْل التأمل والتعقل والتدبر وغيرها مِمَّا تحفل بِهِ آيات الذكر الحكيم.

أما ادعاء نسيم دانا، بِأن المسجد الأقصى لَمْ يَكُن يومًا قبلة للمسلمين، فَهَذَا جهل بالنص القرآنى وبحقيقة ثابتة سار عَلَيْهَا المسلمون حَتَّى نزلت الآية الكريمة: "قَد نَرَى تقلب وجهك فِى السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام وليولوا وجوهم شطره" ولا يزال مسجد القبلتين فِى المدينة المنورة شاهد حَقّ عَلَى هَذِهِ الواقعة الَّتِى كشف دانا جهله بِصَدَدِهَا.

ثُمَّ ما قيمة أن يرد لفظ القدس فِى القرآن فِيمَا يتصل بطابعها العربى والإسلامى؟

إن القرآن الكريم لَيْسَ معجمًا للبلدان، فَهُوَ يورد مِن البلاد مَا لَهُ علاقة بسياق الأحداث. فمكة لَيْسَت مذكورة باسمها هَذَا فِى

القرآن الكريم، وإنما البيت الحرام والمسجد الحرام، فأصبحت مكة كلها حرمًا إكرامًا للمسجد الحرام.

وأخيرًا، إذَا أراد دانا وغيره أن يَكُون حجة فى المسائل الإسلامية، فعليه أن يتحرى الدِّقَة وأن يحدوه حسن النية، فيفتح الله عَلَيْهِ بِمَا يسعى إِلَى معرفته إِذَا حسن قصده وسلمت طويته واستقام عزمه.

الملاحظة الرابعة: ليس صحيحًا أن إسرائيل ـ المكان والأرض ـ وردت فى القرآن، بَلْ ورد بِهِ بنو إسرائيل. وإذا أردنا الدِّقَة فَإِن الَّذِينَ خرجوا مَعَ موسى من مصر هم أتباع موسى من بنى إسرائيل، ومن سَحَرة مصر والمصريين الَّذِينَ آمنوا برسالته. ولذلك فالذين اتجهوا من أتباع موسى إِلَى فلسطين هم من الجانبين. ومعنى ذَلك أننا يجب أن نفرق بَيْنَ مفهوم بنى إسرائيل من الناحية الْعِرْقِيَّة، وبين هَذَا المفهوم من الناحية الإيمانية، حَيْثُ سار موسى بِمَنْ آمن برسالته، ومنهم مصريون ومن بنى إسرائيل أيضًا.

الملاحظة الخامسة: أما القول بِأن الرسول عاقب اليهود لأَنَّهُم رفضوا الدخول فى الإسلام، فَهُوَ اجتراء عَلَى الحقيقة التاريخية الَّتِى تشير إِلَى أن دستور المدينة جعل كُلّ سكان المدينة بِمَنْ فيهم اليهود سواسية أمام القانون، ولم يطلب مِنْهُم الدخول فى الإسلام، ولكنهم كَانُوا مواطنين لَهُم مَا للمسلمين، وعليهم مَا عَلَيهم، تتكامل ذممهم كشعب دَوْلَة واحدة. وقد خرج دانا هَذِهِ المرة عَلَى افتراء أسلافه الَّذِينَ يَسْتَعدُونَ الغير عَلَى الرسول والمسلمين بالادعاء بِأن

الرسول عاملهم بقسوة لأنَّهُم عارضوه، فلا يجوز لرئيس الدَّوْلَة أن يعامل المعارضة عَلَى هَذَا النحو القاسى، وقد سبق أن رددنا عَلَى هَذَا الافتراء فى دراسة سَابِقَة.

والخلاصة أن القدس عربية قبل الفتح وإسلامية بعده، وهى مُقَدَّسَة عِنْدَ المسلمين والمسيحيين وعند اليهود أيضًا، ولكن هُنَاكَ فرق بَيْنَ القدسية والملكية، فَلَيْسَ كُلّ مكان مقدس عِنْدَ أصحاب ديانة معينة ملكًا لَهُم، فالقدس ملك لأصحابها المقيمين فِيهَا، وليست ملكًا للمهاجرين الغاصبين بالقوة لَهَا.